الملكـــــــة

استيقظت من نومي كعادتي في السابعة صباحًا بعد فترة راحة عقب صلاة الفجر جماعة، تقترب من الساعتين.. توضأت وصليت ركعتين لله حمدًا وشكرًا على نعمه التي لا تُحصى ولا تُعد.

بعد ذلك تناولت بعض الأطعمة وما تيسر لي من الشاي والقهوة التي اشتهيها دائمًا من يد زوجتي الحبيبة.

وفي أقل من 10 دقائق كنت قد ارتديت ملابسي قاطعًا طريقي اليومي من مقر إقامتي بمنطقة المرج القديمة، متجهًا إلى منطقة الدقي مكان عملي بجريدة الدستور.

ركبت عربة المترو الأولى بعد فترة انتظار دامت حوالي عشر دقائق. لفتت انتباهي بكلماتها منذ أن جلستُ قريبًا منها.

وبكل أمانة لا أجد وصفًا بعينه يستطيع أن يظهر معدنها الأصيل، وأكون صادقًا مع نفسي وقارئي إذا قلت:

- يعجز لساني عن وصف وطنيتها وأصالتها وعشقها لشعبها وأرضها، هي باختصار شديد امرأة تتجاوز السبعين عامًا، لم تنَلِ التجاعيد التي طبعها الزمان على

وجهها من حيويتها وفصاحتها رغم أُمِّيَتِها كما تأكدت فيما بعد.

- ترتدى جلبابًا وقورًا، شاهدتها وسمعتها تلقن أحفادها من الشباب والصبية، المتفقين منهم والمختلفين على حب مصر، دروسًا في الوطنية ونبذ الخلاف؛ حفاظًا على وحدة صف المصريين.

- بهرتني قوة كلماتها وثقافتها وحسها الوطني وصدقها في الحديث، وصدقوني أيضًا إذا قلت إن وعيها السياسي يفوق سياسيين ومثقفين وإعلاميين، وبالتأكيد نشطاء السبوبة «المقرفين» الذين ملؤوا الفضائيات والصحف والمواقع الإلكترونية بتفاهاتهم وحقدهم وعمالتهم.

من ضمن ما قالته هذه السيدة العظيمة، ناصحة أمينة للركاب:

- إن الله عز وجل وعد في كتابه الحكيم بحفظ مصر حينما قال: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٩].

- وإن الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم) أوصى صحابته بمصر وشعبها حينما قال: «إذا فتح الله عز وجل عليكم مصر، فاتخذوا بها جندًا كثيفًا؛ فذلك الجند خير أجناد الله، فقال أبو بكر الصديق ــ رضى الله عنه وأرضاه ــ «لِمَ يا رسول الله؟ فقال الحبيب محمد: لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة».

ولم تكتفِ الحاجة «مريم»، وهذا هو اسمها، بذلك، بل أشادت في حديثها بما قاله البابا شنودة «مصر وطن يعيش فينا وليس وطنًا نعيش فيه».

أخذني الفضول، وسألتها:

- كيف تنظرين إلى ثورة ٣٠ يونيو والنتائج التي وصلنا إليها الآن؟

نظرت إليّ باستغراب، واندفعت في الإجابة كالصاروخ، فقالت لي:

- شوف يا ابني، الشعب ثار على عصابة تاجرت بالدين والدنيا معًا. الشعب رفض الكهنوت، وصفع كهنة المعبد بالنعال، وأزاحهم عن السلطة بعد عام أسود كشفوا فيه عن سوءاتهم. الشعب اختار بعد ذلك النموذج الأفضل للرئاسة؛ حتى يعبر بمصر إلى بر الأمان، ويحميها من مؤامرات الإنس في الداخل والخارج. الشعب الآن يا ولدي يكتب تاريخه الجديد بيده.

هذه المفردات وقعت على قلبي قبل عقلي كالبلسم الشافي، ثم سألتني الحاجة مريم عن عملي.

لم أجد مفرًّا أمام الركاب من أن أقول لها إنني صحفي- وطني يعشق تراب مصر مثلها تمامًا.

ابتسمت، وقالت لي:

- أوصيك وغيرك من الإعلاميين بصدق الكلمة، وأمانتها في ظروف تعانى فيها مصر من العملاء والأفاقين والمرتزقة والخونة.

أجبتها وعيناي وقلبي وحواسي تتعاطف مع كل حرف تقوله:

- حاضر يا حاجة. نصيحتك غالية وسأعمل بها بإذن الله تعالى.

وقبل أن تقترب المحطة التي أقصدها، استأذنت الحاجة مريم في الانصراف، ودعوت الله لها بالصحة وطول العمر، وردد جميع الركاب الذين شاهدوها وسمعوها خلفي هذا الدعاء، ثم قبلت رأسها، وانصرفت.

هذا الموقف لم يفارق ذهني منذ هذه اللحظة وحتى الآن. ولا أدري كيف قارنت بينها وبين كثيرات من نساء الإخوان اللاتي أعرف بعضهن، ووجدتني أستحضر مشاهد العنف والإرهاب والتفجيرات والقتل التي يمارسها أتباع «البنا وقطب ومشهور وعاكف وبديع» منذ نشأة الجماعة الإرهابية وحتى الآن.

لحظتها سألت نفسى:

- من الذى غرس في رأس هذه السيدة العظيمة ــ غير المتعلمة ــ كل هذا الحب لمصر وشعبها؟ ثم من الذي عبث بعقول المرأة الإخوانية وحوَّلها إلى عدو مبين لوطنها؟ بالطبع جميعنا يعرف الإجابة جيدًا.

وطَوالَ حديثها في المترو كنت أنظر إليها وكأنها إحدى ملكات الأُسَر الفرعونية «حتشبسوت» و«نفرتاري» و«نفرتيتي» و«إياح حتب».

ثم تذكرت أيضًا كيف استطاعت إحداهن أن تلد بطلاً مثل أحمس الأول الذى قضى على الهكسوس، وطهر منهم مصر إلى الأبد.

وربطت بين هذا التاريخ وما نمر به اليوم، وهنا أدركت كلمات شاعرنا العظيم حافظ إبراهيم حينما قال: «الأمُّ مدرسة إذا أعددتَها.. أعددتَ شعبًا طيب الأعراقِ.. الأمُّ رَوْضٌ إنْ تَعهَّدَه الحَيا.. بالرِّيِّ أوْرَقَ أيَّما إيراقِ».

حفظ الله مصر ونساءها الشريفات الوطنيات المخلصات..انتهى.